نقاط أساسية في المسألة القومية

بقلم عزيز السيد جاسم

تحتل المسألة القومية مكانة بارزة بين مسائل النضال البشري المعاصر توجب أن تولى المسألة القومية كل الاهتمامات الفكرية والتعبوية بغية توفير أبعاد علمية حقيقية لحركتها . وفي الواقع ـ على النطاق العربي ـ برز تياران ضاران عرقلا بشكل بارز تصاعد النضال الجماهيري وساهما في احباط الحركة القومية في عدة مواقع . ولذا فنحن مطالبون بتشخيص هذين التيارين وازالة تأثيراتهما على الحركة العربية مع ما يعلق بذلك من ترسبات وملامح . ما هما هذان التياران ؟

التيار الاول : هو التيار الذي اعتنق دعاته القضية القومية اعتناقا لا علميا حيث تحولت هذه القضية الى مجموعة ايمانات نهائية لا تقبل المناقشة العقلية ، فكان أن تجردت القضية عند أصحاب التيار من محتواها الحقيقي وأفعمت بشعارات سريعة مرتجلة لا أرضية لها . وكان أن حلت النزعات الزاعقة بدل التروي في تثبيت الشعارات وأصبحت (القومية) لديهم شيئا فوق الجماهير وفوق الواقع وبالتالي قطعوا عنها جذورها الفعلية كوجود يعكس تطورية مجموعة بشرية كبرى ـ الامة العربية ـ .

ان هذا التيار المدلس في مناخ من التحمسات المهتاجة قد قاد في عدة أحوال الى انحرافات خطيرة لا ينتفع منها الا الاستعماريون والفاشست . فعن طريق لصق نداءات : (نار ، تحرر ، ثار ... الخ) انزلقت بعض القوى القومية المخلصة الى اختيار تمزق الامة واحلال التناحر الداخلي كبديل منسحق ومضاد (للعزة العربية) وبرز في الميدان أسلوب ارهابي يوشك أن يتحول الى أسياف تثقب صدر (الامة) من الداخل قبل أن يكون واجبه اعلاء الاهمية الحضارية للامة العربية عالميا وواقعيا . ويبدو ان هذا التيار قد تعرض لتيارات عالمية أقوى فعلا واثرا . وفرضت عليه الظروف العسيرة التي تحاصر تأريخنا العربي الى تبني طريقة جديدة في الحركة والوعي مع نبذ القشرة الضارة التي تذخر في أعماقها غلوا عنصريا . فقد تأكد بوضوح ان (الاعتقادات القومية الاسمية والعاطفية) لا توصل أبدا الى مرفأ ، وانها ليست الا امتدادا للعصبية القبلية التي تعتبر أخطر الاخطار على جسم الامة . وفيما عدا انبثاق لون سياسي صغير يتشخصن تحت لافتة (القومية المختارة) تولدت من رحم هذا التيار اتجاهات جيدة تربط بشكل موفق بين (القومية) و (الاممية) وبين (القومية) و (الحركات التحررية العالمية) وتحت تسمية القومية الانسانية .

أما **التيار الثاني :** فهو التيار الذي ألغى في حسابه الحركة القومية ولم يمتلك الرؤية الثورية الحقيقية التي يستطيع من خلالها فهم الابعاد القومية الهامة . وهذا التيار المنتسب الى الحركة التقدمية أخفق في تطوير أساليبه في العمل السياسي لكونه انتكس ايديولوجيا باحتفاظه بمفاهيم ضالة عن القومية . ولذلك ففي الوقت الذي يجري فيه في الجهة المقابلة خط قومي متعصب لا يدرك الحدود العالمية للقومية كان يجري بالنسبة لهذا التيار اصرار على احتضان شعار (الاممية) ونبذ (القومية) دونما مفهوم علمي وارد يتقاضون به . وكانت الحجة التي يلجأ لها جماعة التيار الثاني هي ان (القومية) تكوين برجوازي وان أية حركة قومية هي حركة برجوازية. ولا يدري أحد من أية مقولة أو نص علمي استطاعت هذه الجماعة أن تستنبط هذه الحجة . نعم ان البرجوازية ، وفي فترة نشوئها الاولى ، ترفع شعار (الامة) كواجب ضد (الاقطاعيات) ـ الامم داخل الامة ! ـ وذلك لتمكين نفسها من استلام مواقع السيطرة والنفوذ . وترفع شعار الحركة القومية كجزء من برنامجها التقدمي وقبل أن تتجه اتجاها رجعيا . ولكن هل ان هذا يعني حياد الكادحين ؟ أي هل ان أوسع الجماهير العربية تتوقف عن نضالها لاخذ الراية من يد البرجوازية وتحويل الشعارات القومية الى شعارات تخصها هي ؟ وهل يعني نضوج الحركة القومية في المرحلة البرجوازية ان الحركة أضحت ملكا ثابتا للبرجوازية ؟ أم ان هذه الحساسية ازاء القومية مبعثها التفكير المبكر جدا في المرحلة الاخيرة ما بعد الاشتراكية حضاريا وعالميا ؟

المهم ان التيار الثاني أيضا ، وبفعل ضغط الظروف الواقعية وما توفر من اشكالات محرجة عديدة ، قد تولد في أحشائه تيار توصل الى مفهومات حقيقية واعية عن القضية القومية ، وظلت هناك شتات هجينة لا تدرك أبدا التوفيق بين النظرية وشروط الواقع القائم ، فباتت تتحدث انها ـ احتمالا ـ تتحرك ضمن مخطط خارجي بوعي منها أو بدون وعي .

ان الكشف عن هذين التيارين والتخلص من أحكامهما وروابطهما أضحى ضرورة لازمة لبلورة الوعي القومي بشكله المعاصر والعلمي .

ومن مدلولات الوعي العلمي القومي ما يلي من نقاط أساسية :

(أولا) **مسألة الحل الصحيح للعلاقة بين الامة**

والطبقات : عندما حاولت البرجوازية العربية الناشئة تنشيط الحركة القومية وامتطاءها انما كان ذلك منها أمرا طبيعيا . فالبرجوازية في سعيها من أجل تثبيت مرتكزاتها الاقتصادية كانت ميالة لخلق اتحادات مصلحية خاصة ، لذلك تولد شعار (الامة) من خلال حركة الاسواق بالنسبة للبرجوازية وبقدر ما يتحول الشعار القومي الى عائق ينكر مصلحة البرجوازية كانت البرجوازية تنفض هذا الشعار بسهولة . ان البرجوازية عندما تتحدث عن (الامة العربية) مثلا كانت تعني توحيد نفسها واحتكاراتها ومجموعة مصالحها ضمن الاطر القومية ، أي ان مصلحتها الطبقية كانت تستحوذ على الوعي القومي وتحرفه . ومن جملة ما تدخله البرجوازية من تنظيرات تحريفية ادعاؤها ان الامة لا تتأثر بالصراع الطبقي . أو ان على الصراع الطبقي أن يختفي من أجل وحدة الامة . ويبدو ان طلبا كهذا يائس تماما لانه لا أمل أبدا في التخلص من واقعية الصراع الطبقي ما دامت البرجوازية تعيش تأريخها (المجيد !) . ان وحدة الامة لا تكون أبدا وحدة المستغلين (بكسر الغين) والمستغلين (بفتح الغين) . وبالنسبة لامتنا العربية حيث خانت البرجوازية قضاياها وتطلعاتها الاساسية تتكشف في داخلها عن منطقين : المنطق الاول منطق السيطرة الطبقية والاستغلال ، أي منطق الطبقات المتحكمة والمكتنزة عن طريق الربح الحرام : فائض القيمة ، السخرة ، الاتاوات ، الربا ... الخ . والمنطق الثاني منطق المحرومين والكادحين . واذ لا وحدة بين هذين المنطقين يكون الخيار اجباريا ولا مفر منه : أي منطق تلتزمه الامة ويلتزم هو ــ حقيقة ــ الامة ؟ الاستغلاليون يلتزمون الامة بقدر ما تدر لهم من أرباح ، وهم على قلتهم محكوم عليهم تأريخيا بالانتهاء . أما الكادحون فهم جماهير الامة العربية الحقيقية . فالامة ليست تشكلا جغرافيا أو تأريخيا ولا تربط نفسها أبدا بقوة زائلة تأريخيا . ان الامة كاطار كبير لا تتوحد الا بفعل القوى البشرية الهائلة والعاملة أي قوى الكادحين والشغيلة والفلاحين ومن يرتبط بهم تأريخيا ومصيريا . لقد كانت خسارة أمتنا العربية الجسيمة في (٥ حزيران) متأتية من غياب دور الجماهير ، من غياب دور المحركين والبناة الحقيقيين . لقد فرض فشل البرجوازية الحاكمة مصيرا تعيسا على الامة ــ وطبعا هذا المصير وقتي وزائل ــ وعلى اثر النكسة تعالت أصوات الاتهام ضد البرجوازية التي ينبغي لها أن تتوارى عن القيادة السياسية بفعل الضغط الجماهيري العربي الكبير . ولذا يتضح لنا ان شعار وحدة الامة لا يكون الا بتغليب دور الطبقات الكادحة بشكل أساسي ، وان المحاولات التوفيقية وافتراض الهدنات الطبقية لا يغير من واقع ان الامة هي أمة أبنائها الحقيقيين (العمال والفلاحين) ومن يرخص الحياة من أجل القضية القومية هذه . وان مفاهيم (الوحدة الداخلية) و (الهدوء) و (تناسي الصراع) و (الصفاء) هي مفاهيم لا تعني شيئا اذا لم ترتبط بواقع سياسي تقدمي ومن خلفية بناءة . فوحدة الامة ليست وحدة الظالمين والمظلومين بل ان وحدة الامة تتم عبر ازالة متواصلة للغش الداخلي وما يلحق به من مناورات وعفن . وهذا يكون فقط عن طريق اجتثاث قوى الغش الطبقي ، أي القوى التي جعلت شعبنا العربي في المحل الثاني ، في حين كانت تدجن باستمرار أبقارها وكلابها لتشرب وحدها اللبن ونستعدي كلابها لتنهش المعارضة الجماهيرية . ولذلك فان شعار الاشتراكية يتلاحم مع شعار الوحدة العربية تلاحما وطيدا . وعن طريق هذا التلاحم تكنس كل أشكال العلاقات والشعارات السياسية الغريبة عن واقعنا ومتطلباته كنسا تاما .

(ثانيا) **المسألة الفلاحية جوهر المسألة القومية :**

ان الفلاحين العرب هم قوة اجتماعية ضخمة . وهذه القوة تمد الامة باستمرار برجال العلم والسلاح والعمل لانها ، بحكم كونها أكبر طبقة اجتماعية ، تدفع بأبنائها في شتى دروب العمل والمساهمة ، ولكن نظرة بسيطة الى واقع الفلاحين العرب تكفي أن تبين لنا ما يلي :

أولا ــ ان الفلاح لا يزال مرتبطا بأتعس قيود القنانة حتى الآن وبشكل بدائي في أغلب الامكنة العربية بحيث تبدو علاقاته وكأنها عينة من علاقات وأوضاع الارقاء قديما . وحيث تمت تصفية الاقطاع بشكل عام عالميا فان الاقطاع لا يزال في عالمنا العربي متنفذا بشكل جلي ، مما يحول دون تحرير القوى الفلاحية واطلاق حريتها للعمل الفعال .

ثانيا ــ ولهذا وبفعل تآمر الاقطاع ضد الفلاحين فان الفلاح يعيش جهلا عجيبا مفروضا عليه كقدر .

ثالثا ــ وبفعل هذا القدر المصنوع من رجال الاقطاع تحولت القوى الفلاحية الكبيرة الى همل . أي انها لم تدخل أبدا في تأريخها بل عاشت خارج التأريخ . ولذلك فالمسألة الحاسمة هي : كيف يتم الوصول الى تطابق حقيقي بين تأريخ الامة العربية وبين وجود الفلاحين الذين يشكلون أوسع قسم بشري في هذه الامة ؟

ان بقاءهم هكذا لا في الهامش بل وحتى خارج الهامش ، واغفالهم بهذه الصورة ، انما يعني تمويت قسم كبير من خلايا الجسم العربي ، ولذلك تنتصب أمامنا ضرورتان ماستان :

الضرورة الاولى هي تطبيق الاصلاح الزراعي من قبل الحكومات العربية التقدمية تطبيقا جذريا ، فذلك ضمانة جدية ووحيدة لتحرير الفلاح من أسر العبودية واطلاق كل قواه العقلية والجسدية . ولا بد من الاشارة هنا الى مفارقة هامة ، ففي الوقت الذي ترفع فيه الحكومات العربية شعار الاشتراكية نجد انها لم تستكمل تطبيق قانون الاصلاح الزراعي الذي يعتبر بالاساس اجراء ديمقراطيا برجوازيا . فما بالنا اذا كان النظام اشتراكيا ؟

أما الضرورة الثانية فهي ضرورة الاهتمام من قبل

المنظمات السياسية التقدمية بالعنصر الفلاحي ، اذ ان انتماء الفلاحين للقوى السياسية جزئي وضئيل . وحيث ان اعطاء الفلاح دوره الحقيقي يبتدىء بتحريره اقتصاديا فهنالك ما هو أهم لانه يعني الحفاظ على هذه الحرية ، وذلك عن طريق التربية السياسية والتثقيف المستمر ، وهذا ما تقوم به المنظمات السياسية لانه من صلب واجباتها طبقيا وسياسيا . وبدون ذلك تخسر القوى السياسية الثورية أصالتها وتخسر الحركة الثورية قوة بشرية كبرى هي الفلاحون .

ان البرجوازية لم تستطع أن تحول الفلاحين الى حليف لها ، ولكن الفلاحين وعلى ضوء التقسيمات الطبقية في واقعنا هم الحليف المباشر للطبقة العاملة وعلى عاتقهما وعاتق من يعضدهما من المثقفين والعسكريين الثوريين تقع مسؤولية دفع حركة الثورة العربية الى الامام .

(ثالثا) **العلاقة الديمقراطية بين التنظيمات السياسية التقدمية المختلفة :** ان الواقع العربي شاء تطوره أن لا يكون بسيطا بل هو مركب من مجموعات متباينة من النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . والتفاوت الذي نشهده في أقطار المجتمع العربي يكشف تعدد وسائل النضال وتنوع التنظيمات السياسية . وعلى ضوء تجربة كل قطر عربي نشهد نشوء قوى سياسية مختلفة ، ولكن مع ذلك يظل ينتظم هذه القوى رابط أساسي هو الرابط القومي وشعاراته الاساسية . ولما كان التفاوت بين أقطار المجتمع العربي يتضمن اختلافات طبقية بينه نستطيع أن نشاهد ان الطبقات الرئيسية المسؤولة عن المستقبل العربي هي (العمال ، الفلاحون ، البرجوازية الصغيرة) مع ما يندغم ضمن هذه الطبقات من مثقفين وعسكريين ثوريين . وحيث ان القوى السياسية هي تعبيرات سياسية عن التكوينات الطبقية وتطلعاتها ، فالاختلاف بين القوى التقدمية وارد أصلا ، لانه يعكس تعدد الطبقات المتشاركة في دفع عجلة الثورة العربية . ولذا تنبثق نقطة لاهبة هي : كيفية الحل الصحيح للتناقضات الثانوية بين الاطراف السياسية المتباينة .

أولا ، وقبل كل شيء ، ان الحركة الثورية العربية لا يستطيع أن يقوم بأعبائها تنظيم منفرد . فحين تمت ادانة تنظيمات تدعي تمثيل الامة بكامل طبقاتها ينبغي محاشاة اختلاء تنظيم سياسي واحد لوحده في الميدان في مرحلة الديمقراطية البرجوازية و (الديمقراطية الموجهة !) لان الشركاء في مسؤولية هذه الحركة لا يمكن شجب دورهم اطلاقا . ولكن في مقتبل الدخول الى مرحلة الاشتراكية تتوافر الادلة على ريادة أحد التنظيمات السياسية القائدة ، وبذلك يكون الحزب أو التنظيم القائد مرهونا بمسيرة الثورة المتصاعدة ومستلزماتها . ولهذا وفي الاشتراكية فقط يبدو وجود حزب واحد مسألة غير متعسفة ، بل طبيعية تماما . أما الآن وحيث يعيش المجتمع العربي تداخلا في المراحل فان حقيقة التعايش الديمقراطي بين القوى الثورية هي من مقتضيات الدفاع عن الوجود القومي . ان هذا التعايش أيضا لا يمكن أن يبقى حبيس السلبية بل يجب أن يتأكد حول برنامج جبهوي . وفيما اذا تهيأت جبهات داخلية قوية كان ذلك ايذانا بنشوء جبهة عربية تقدمية صلدة . ان الانشقاقات الداخلية وعدم التوصل الى لقاءات ايجابية وانعدام الحوار الهادف بين التقدميين العرب ، كله قد أدى الى اضعاف المقاومة العربية وجعل المبادرة بين أيد غير وفية . ولذا فان جوهر المسألة القومية لا يتحرك الا ضمن الجو الديمقراطي . وهذا الجو الديمقراطي لا يعني الديمقراطية الليبرالية ـ حرية الشعب وأعداء الشعب ـ بل هو الديمقراطية الثورية التي تعزل جيدا رفاق الطريق عن الاعداء .

العراق — **عزيز السيد جاسم**

صدر حديثا :

تشريح جثة الاستعمار

تاليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب